بين فنون التاريخ وفنون الحرب

٩ ـ خالد بن الوليـــد *

في حروب الردة

للفريق طـــه باشا الهاشمي

رئيس أركان الجيش العراقي

« لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني شبر إلا وفيه ضربة أو طعنة ، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير ! فلا نامت أعين الجبناء »

خالد بن الوليد

ولا يخلو من الفائدة أن نقتبس هنا وصف المستر فلبي الذي تجول في هذه المنطقة في صيف سنة ١٩١٨ ، فدون مشاهداته في كتابه « البلاد العربية الوهابية » (Arabia of Wahhabit) وقد وصف قرية الجبيلة الواقعة بالقرب من قرية (عقرباء) التي دارت رحى المعركة فيها بما يلي :

« والقرية الآن آهلة بعدد يسير من السكان البؤساء ، ومعظمها أطلال دارسة ، ومقابر الصحابة على ضفة التلعة المقابلة للقرية (أي الضفة اليسرى للوادي) وعلى مسافة نحو ربع الميل منها . وقد يشاهد المسافر بقاعاً متفرقة مغروسة بأشجار الأثل (الطرفاء) تُسَرّي عن المرء الانقباض الذي يعتريه من إدامة النظر الى اللون الأغبر الذي لا يتغير ، وهو اللون الدائم لتلك السهول الرسوبية الترامية التي سدت الوادي . وبقرب الحي آبار كثيرة بعضها مطوي بالحجارة يستقي منه أهل الحي دائماً . أما بيوت أهل الحي فمعظمها أطلال من اللبن بلا خشب ، وقد عبثت بها يد البلى ودرست آثارها الأيام . أما ما بقي منها فلا بأس بحاله ، ويستدل منه على أن أهل تلك البيوت عنوا بمبانيها فدعموها بأعمدة حجرية مشيدة بالجص لتحمل على متونها روافد السقوف . وقد شاهدت في دار منها وعاء مزدوجاً كبيراً من الملاط المغطى بطبقة رقيقة من الصاروج (الجص) الأحمر الحزن المرور ، ولا تزال جدرانه ملوثة بعصارة التمر » إلى أن يقول : « ومعظم الجدران المبنية من الطين مؤزر الى ما يقارب نصفه بأيادات من الحجر الصلد مبنية على وجه الجدار بناء منحرفاً توخوا فيها بساطة التزويق لا غير » . . . ويقول في وصف جبل طويق والهضاب التي يشرف عليها : « أما ما استدار من الأرض حول تلك المنطقة فلم أجد في حياتي أرضاً مثله ، فلم أعثر في ارتياضه على شيء تنقبض له النفس ، فتجد أمامك طريقاً معرضاً لهاب الرياح ، خالياً من الظاهرات الطبيعية ، ضارباً في كافة الجهات على نمط واحد لا نهاية له ، ولا يعترضه في ذلك التكوين الغريب سوى الحرف المطمئن المسمى جبل صلبوخ الواقع الى الشمال الشرقي »

وعندما يبحث في أطراف عينة عاصمة آل ابن معمر القدماء وهي القرية الواقعة الى غربي عقرباء ، في واد ضيق — يقول : « أما ربوع عينة التي اشتهرت في قديم الزمن بجمالها وخصبها فمنبسطة على جانبي المسيل شرقاً وغرباً نحو ميلين ، وقد أمست الآن قاعاً صفصفاً وأثراً بعد عين ، ونبتت أدغال الأثل في البقاع التي وطئت أراضيها ومهد ثراها لغرس فسائل النخيل فيها . أما البلد الأصلي أو الحلة التي كانت يوماً موطناً لآل ابن معمر فلا تختلف عما كان حولها من الربوع الضاربة في صدر تلك المحلة الرحبة ، إلا أن أطلالها الشاخصة قد شغلت بقعة وسيعة ، وغرعار السيل في تلك البيداء بين آونة وأخرى بأطلال البنيان القديم كالعمد المزوقة رؤوسها . وفي كل ناحية من نواحي تلك المحلة الوسيعة آبار نضب عنها الماء وهي مطوية بالحجارة والآجر وعليها أحواض مبنية بالصاروج ، أما ضفاف المسيل فمدعمة بأيادات كالسفيات على أشد ما تكون من متانة البنيان ، عقدها أصحابها في وجه السيل من زمن بعيد لحبس المياه في بطن المسيل . فرحلوا عنها وتركوها وشأنها فعبثت بها يد الدهر فتداعت جدرانها وتقوض بنيانها المحكم ثم غدت تراباً فوق أنقاض بالية . وشاهدت في بعض تلك الجدران حجارة كبيرة من الصخر الصلد طول الحجر الواحد قدمان في عرض نصف قدم » الى أن يقول . « جزنا الأطلال وخرجنا من عينة الخربة وسلكنا طريقاً تخترق أشجار الأثل في عنفوان نموها والمنتشرة في طول الأرض وعرضها الى أن تنتهي في طرف المحلة القائمة في الناحية الغربية فولينا وجوهنا شطر المغرب صاعدين الوادي . فسار بنا الظعن يطوي صوحه صعوداً . وعرض الوادي في أسفله (أي في عقيقه) نحو الميل ،

(*) وهو بحث فني قيم لا يضطلع بمثله اليوم فيما نعلم غير كاتبه الفاضل « الرسالة »

وكلما ارتقى الانسان صوح الوادى وارتفع عن عقيقه ازداد انفراج الوادى الى أن بلغ عرضه ميلين أو ثلاثة اميال . ولما أرسلت رائد الطرف فى ميمنة الوادى بدا لى شعيب فى منخفض الوادى ، وقد قيل لى إن هذا الوادى يأخذ فى الصعود مرة أخرى الى حوض عظيم كسيت جدرانه بالصاروج ، يقع على سفح التل لحبس مياه الأمطار والثاعب المنحدرة على جوانبه ، ولم يزل حتى الآن خزاناً لرى حقول القمح المزروعة فى وسط الخرائب . وهناك شعيب آخر الى يمين طريقنا يقال له شعيب عينة ينحدر من الهضبة الضيقة التى تفصل وادى حنيفة عن وادى سدوس »

قوات الفريقين

برغم كثرة الروايات التى تتناول حركات اليمامة والقتال فى عقرباء نجد الغموض ظاهراً فى معرفة قوة الفريقين

فالطبرى يذكر نقلاً عن سيف بن عمر أن القوة المحاربة لدى قبائل بنى حنيفة بلغت أربعين ألفاً . ولما ذكر أخبار السنة الحادية عشرة الهجرية نقل عن ذلك الراوى نفسه ، وزعم أن القوة المحاربة بلغت عشرة آلاف . أما ابن حبيش فيذكر فى رواية نقلها عن الواقدى مفادها أن قوة المسلمين بلغت أربعة آلاف ، وقوة بنى حنيفة أيضاً بلغت هذا المقدار ذاته . وفى رواية تسند الى سيف بن عمر يزعم الراوى أن عدد القتلى من بنى حنيفة بلغ عشرين ألفاً

أما المؤرخ الفارسى ميرخوندى فيزعم أن عدد القتلى فى تلك الموقعة بلغ سبعين الفاً ، والذين قتلوا فى حديقة الموت بعد المعركة بلغ عددهم سبعين ألفاً . ولعلك أدركت أنه يصعب الوصول الى عدد يقرب من الحقيقة بين هذه الروايات التى تقدر قوة الحنفيين بين أربعة آلاف وأربعين ألفاً ، وعدد القتلى منهم بين عشرين ألفاً الى مائة وأربعين ألفاً

ولكن الثابت أن مسيلمة جمع أعظم قوة لمقابلة جيش المسلمين ووضعها على الحد الفاصل بين بلاد حنيفة وبلاد بنى تميم وترك القرى العامرة وراءه . وكان من مصلحة الحنفيين أن يجتمعوا تحت لواء رئيسهم للدفاع عن حيهم الذى تركوه وراء ظهورهم ، ويظهر من مجرى المعركة أن عدد القتلى فى قوة الحنفيين كان كبيراً

لقد قدرنا جيش بنى حنيفة عند البحث فى قوات الفريقين بخمسة عشر ألف مقاتل — بمعنى أن الجهد الأقصى للقوة التى يستطيع الحنفيون سوقها لا يجاوز العدد المذكور . والذى يلوح لنا أن القوة التى جمعها مسيلمة فى عقرباء تبلغ عشرة آلاف مقاتل.

قوة المسلمين

يروى الواقدى أن جيش خالد بلغ أربعة آلاف مقاتل فى معركة عقرباء . وفى رواية أخرى تسند إلى عيسى بن سهل أن الجيش الذى تولى قيادته خالد لما خرج من المدينة كان بقوة أربعة آلاف مقاتل ، وهذا الجيش حارب فى اليمامة . والذى لاريب فيه أن قوة جيش المسلمين بلغت أربعة آلاف مقاتل لما تركت الربذة وتقدمت نحو بزاخة وانضمت إليه قوات من بنى طى قبل المعركة . ثم زاد هذا الجيش بعد إسلام قبائل بنى أسد وغطفان . ولعل قوته بلغت أكثر من خمسة آلاف لما نزل فى البطاح . ومن الثابت أن جماعات من بنى تميم انضمت إليه قبل أن يتوجه نحو اليمامة . وتروى لنا الأخبار أن الخليفة أبا بكر أمد الجيش بقوات من المدينة لما كان محتشداً فى البطاح ، وأن خالداً سبق هذا الامداد من المدينة وانتظر وروده من البطاح . فجميع هذه الأخبار تدل على أن جيش المسلمين تضاعفت قوته بانضمام القبائل ووصول النجدة إليه قبل أن يتحرك من البطاح نحو اليمامة

وكان من البديهى أن تلتحق به القبائل متى اتصل بها خبر خيرات اليمامة ووفرة المغنم فيها .

ويلوح لى أن قوة الجيش بلغت أكثر من ستة آلاف قبل حركته من البطاح

الموقف قبل الحركة

لبى خالد أمر الخليفة فذهب إلى المدينة ليدافع عن عمله فى قضية مالك بن نويرة ، وفى رواية لسيف بن عمر أن أبا بكر أرسل عكرمة بن أبى جهل إلى اليمامة لما كان خالد يحارب المرتدين فى بزاخة وأمده بقوة أخرى بقيادة شرحبيل بن حسنة . والرواية تزعم أن عكرمة بدأ القتال قبل وصول شرحبيل فنكب . فأقام شرحبيل فى الطريق حيث أدركه الخبر . وهذه الرواية تؤيد زعم سيف فى أن الخليفة قسم جيش المسلمين فى ذى القصة إلى إحدى عشرة فرقة ، وعين قائداً لكل منها فوجهها إلى مناطق المرتدين . وقد سبق أن بينا فساد هذا الزعم . وفى رواية أخرى أن شرحبيل

ابن حسنة الذى تلقى أمراً من الخليفة بأن ينتظر ورود خالد ولا يتحرك بادر إلى قتال مسيلمة قبل قدوم خالد فنكب وانسحب . وإذا صحت هذه الروايات يلوح لنا أن عكرمة بن أبي جهل كان يراقب اليمامة بقوة سائرة من المسلمين لما وقف خالد فى البطاح ، فوقعت مناوشات بينه وبين الحنفيين حبطت مساعيه فيها فانسحب . أما شرحبيل بن حسنة فانه تولى قيادة جيش المسلمين عند ذهاب خالد إلى المدينة . فبدلاً من أن ينتظر ورود خالد أسرع إلى مقاتلة الحنفيين فانكسر

ولما قدم خالد البطاح كان جيش المسلمين مرابطاً فيها ، وكانت قبائل بنى تميم عرضت الولاء إلا البعض منها فالتجأ إلى اليمامة . وكان بنو طيء وبنو أسد وبنو غطفان وبعض بنى تميم أمدوا جيش المسلمين بالمقاتلين

أما مسيلمة فانه جهز عدداً كبيراً من بنى حنيفة وتقدم شمالاً يريد مقابلة جيش خالد . وتدل الأخبار على أن بعض الحنفيين كان يخابر المسلمين سراً ويطلع خالداً على موقف مسيلمة . ومن الروايات ما يؤيد أن الحنفيين الذين حافظوا على إسلامهم تحفزوا للشغب على مسيلمة

الطريق الذى سلكه خالد

هناك طريقان للتقدم من البطاح نحو اليمامة : طريق شرقى وطريق غربى . أما الطريق الشرقى فيتجه شرقاً أولاً ثم يمتد إلى سفح جبل طويق الغربى متوجهاً إلى الجنوب الشرقى ماراً بالأرض الجبلية ، وهو الطريق الذى يصل بريدة بالزلفى ثم يمتد إلى المجمعة ومنها إلى الحوطة فشاذق فسدوس ؛ أما الطريق الغربى فيتوجه نحو الجنوب الشرقى فيمر بين نفود السر ونفود الشقيقة إلى أن يصل الى الشقرة عاصمة الوشم ومنها يمتد موازياً لسفوح جبل طويق الغربية فينعطف نحو الشرق ويتسلق الجبال ويمر بثنية اليمامة حيث ينبع وادى حنيفة فى غربى عينة فينتهى فى عقرباء ويدخل اليمامة .

والذى يلوح لنا أن خالداً سلك الطريق الغربى لاجتيازه أرضاً سهلة تجعل المدينة فى ظهره . أما الطريق الشرقى فيخترق أرضاً جبلية وعرة . وقد تعرقل عليه السير إذا أراد أهلها المقاومة فضلاً عن أنه طويل

ومن الأخبار ما ينبئ بأن طليعة جيش المسلمين باغتت بعض رجال مسيلمة فى ثنية اليمامة — أى فى عقبة الحيسية وهو المضيق الواقع إلى شرق الحيسيات بين خشم الحيسية وخشم الخرشة وفيه تنقسم مياه الأمطار ، فمنها ما يصب إلى الشرق ويجرى فى وادى حنيفة ومنها ما يصب إلى الغرب ويجرى فى بطن الحور

ومن جملة الأسباب التى تجعل خالداً يميل إلى سلوك الطريق الغربى قربه من قاعدة الحركات أى المدينة . فاذا ما نكب الجيش يصل إليه المدد من خلفه ، وإذا ما تضايق يستطيع الانسحاب إلى المدينة أو إلى مكة من بلاد أسد وغطفان ، أو من بلاد بنى عامر وهوازن . لذلك نجزم بأن جيش المسلمين سلك ذلك الطريق فى مسيره نحو اليمامة

معركة عقرباء

يقيناً أن معركة عقرباء من المعارك الفاصلة التى ختمت دوراً وفتحت دوراً آخر . فالمسلمون جمعوا أقصى قوتهم بقيادة أمهر قوادهم . والمرتدون حشدوا أعظم قوة فى استطاعتهم جمعها فى أوعر منطقة . فمجرى المعركة يدل على الغاية التى كان يستهدفها كل من الفريقين

فلو انكسر المسلمون ، لا سمح الله ، فى هذه المعركة ، لبقى العرب منزوين فى جزيرتهم ، واحتفظ الأكاسرة بملكهم فى العراق ، ولم يبك هرقل ضياع سورية . فالنبي الكاذب أسود العنسى الذى سيطر على اليمن مدة من الزمن قتل غيلة ، فلم يضطر المسلمون الى حشد قوة كبيرة للتغلب عليه . أما بنو أسد فلم يكن من الصعب التغلب عليهم لتفرق كلمة القبائل . بيد أن فى عقرباء احتشدت أعظم قوة من أمنع قبيلة فى أرض مستحكمة ، وكان الناس يقاتلون عن حيهم ، ويتفانون فى سبيل نبيهم

ولما انتهت المعركة بانتصار المسلمين انكسرت مقاومة المرتدين فى الأقطار الأخرى ، ولم يلاق المسلمون صعوبات فى تمكين الاسلام من قلوب أهلها ، فخضعت البحرين ، ودانت عمان ومهرة بدين الاسلام ، وجدوت حضرموت إسلامها ، وعادت اليمن الى حظيرة الاسلام . وكان من أثر ذلك أن اجتمعت كلمة العرب فشعروا بقوتهم فبادروا الى الفتوح بقيادة رؤسائهم ، فاندفعوا كالسيل الجارف يبلون العروش ويقضون على امبراطورية الأكاسرة ودولة القياصرة ، فلم يمر بضع سنوات على ذلك حتى كان العرب يصولون بخيولهم فى بلاد خراسان شرقاً وبلاد المغرب غرباً

يتبع

طه الهاشمى